الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، -صلى الله وسلم عليه وعلى آله واصحابه أجمعين-.

نواصل قراءة الأحاديث، وقد بقي معنا بقية من الأذكار والدعوات التي يُشرع للمسلم أن يقولها عندما يأوي لفراشه لينام.

(المتن)

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بناصيته، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فليسَ قَبْلَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فليسَ بَعْدَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فليسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فليسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ». خرَّجَه مُسلم.

(الشرح)

هذا الحديث حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، هو من جملة الدعوات التي أرشد إليها رسول الله ﷺ مما يستحب للمسلم أن يدعو به إذا أوى إلى فراشه، وهي للمتأمل دعوات عظيمة جليلة القدر، عظيمة الأثر، كبيرة النفع ينبغي للمسلم ألا يحرم نفسه من خيرها وبركتها، ونفعها، وفائدتها، وظاهر الحديث يدل على شدّة تأكيد النبي ﷺ أو شدة اهتمام النبي ﷺ بهذه الدعوات العظيمة، فكان -عليه الصلاة والسلام- اذا أوى إلى فراشه أتى بهذه الدعوات، وهي في جملتها توسلات إلى الله -هز وجل- بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم لهذه المخلوقات الكبيرة العظيمة، وتوسل إليه -تبارك وتعالى- بأنه فالق الحب والنوى، مُنزل التوراة والقرآن والإنجيل، أن يُعيذ العبد من شر كل دابة، ويقيه من الشرور بأنواعها، والآفات ثم توسلات أخرى إلى الله -عز وجل- بأربعة أسماء عظيمة من أسمائه وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، ثم توجه إليه -عز وجل- بأن يُغني من الفقر، وأن يقضى الدين عن العبد، فهي دعوات عظام فيها توسلات عظيمة بالله -تبارك وتعالى-.

قوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ**» جاء في بعض روايات الحديث بسند ثابت إضافة سبع، «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السبع**»، ففيه التوسل إلى الله -تبارك وتعالى- بربوبيته للسماوات السبع الطباق. «**وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**» هذه ثلاث مخلوقات كبيرة توسل إلى الله -تبارك وتعالى- بها لعظمها وكبرها، وهي: السماوات، والأرض، والعرش العظيم، ثم بعد هذا التخصيص عمَّم فقال: «**رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ**»، فهو توسل إلى الله -عز وجل- أولًا بربوبيته لهذه الكائنات، فكأنه ينادي: يا خالق السماوات السبع، ويا خالق الأرض، ويا خالق العرش العظيم، يا رب هذه الكائنات، ثم بعد ذلك يعمّم «**رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ**»، وهذه كله توسل إلى الله -تبارك وتعالى-.

قال: «**فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى**» أي: يا فالق الحب والنوى، والفلق: هو الشقّ، وفلق الحَب والنوى: شقّه، والله -عز وجل- من حكيم تدبيره، وكمال قدرته -سبحانه وتعالى- أنه يفلق الحبوب، وكذلك النوى التي ينشأ عنها بإذن الله -تبارك وتعالى- النباتات، أما الحبوب: الحَب فإنه يفلقه -سبحانه وتعالى- وهو في جوف الأرض، وفي بطن الأرض، فتخرج منه الزروع المتنوعة بإذن الله -

تبارك وتعالى-، وأما النوى: فإنه تخرج منه الأشجار، والله -تبارك وتعالى- فالق الحب الذى ينبت به الزرع ،وفالق النوى الذي ينبت منه الأشجار العظيمة الكبيرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام:٩٥]، وهذه آية من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرته -سبحانه وتعالى-؛ لأن النواة على سبيل المثال نواة التمر عندما توضع في الأرض وتدفن، ثم تصل إليها المياه من وقت إلى آخر، تجد الأرض بعد وقت تبدأ تنشقّ قليلًا ثم يخرج عودٌ رقيق جدًا، لو اتكأت عليه بيدك لتشقّ هذا العود، ثم مع رقته الشديدة يشقّ الارض ويخرج، ثم يكبر، ثم عروقه تمتد في الأرض، إلى أن ينشأ من هذه النواة الصغيرة شجرة من أكبر الأشجار وأضخمها، هذا كله لكمال قدرة الله -جل وعلا- وكمال تدبيره، فيناجى ربه ويناديه متوسلًا إليه بهذه العظمة وهذه القُدرة: «**يا فالق الحب والنوى**»، وعندما يقول المسلم: «**يا فالق الحب والنوى**» يتذكر كمال قدرة الله -عز وجل-.

«**فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ**»، ذكر هذه الكتب الثلاثة وهي كتب منزّلة، ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، -سبحانه وتعالى- أنزلها الله -تبارك وتعالى- على أنبيائه هدى، ورحمة، وهداية، وذكرى للذاكرين.

- التوراة: هو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه موسى -عليه السلام-.
- والإنجيل: هو الكتاب الذى أنزله الله على نبيه عيسى -عليه السلام-.
- والفرقان: هو القرآن الذي أنزله الله -تبارك وتعالى- على نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين، وجعل القرآن خاتم الكتب المنزّلة، فلم ينزل بعده كتاب، كما أنه لم يُبعث بعد محمد ﷺ رسول. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٠]، فجعل -تبارك وتعالى- أعظم كتبه المنزلة وهو القرآن لأعظم رسول -صلوات الله وسلامه عليه- وجعله خاتمةً للكتب المنزلة.

فهنا توسل إلى الله -عز وجل- بتنزيله لهذه الكتب هداية للناس، «**مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ**» يعنى: يامن مننت على عبادك وأكرمتهم بأن أنزلت عليهم هذه الكتب هداية ورحمة وصلاحًا للعباد، ففيه توسل إلى الله -عز وجل- بإنزاله لهذه الكتب. لما ذكر التوراة، والإنجيل، والفرقان، قال: «**مُنزِل**» أو «**مُنزّل**»، ولما ذكر ما قبلها قال: «**ربّ**»، وقال: «**خالق**»، وقال: «**فالق**»؛ لأن كل تلك الأشياء مخلوقة لله -تبارك وتعالى-، أما التوراة، والإنجيل، والقرآن فهي كلامه -سبحانه وتعالى- ولهذا تغيّر الأسلوب، وتغير اللفظ فقال: «**مُنَزِّل**» أو «**مُنزّل**» لأن التوراة، والإنجيل، والقرآن هذه كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، بل هو تنزيل منه، تكلم به -تبارك وتعالى-، ومن لم يفرّق بين هذه المخلوقات وبين كلامه -تبارك وتعالى- فجعلها كلها من باب واحد مخلوقات لله؛ فقد ضل سواء السبيل، وانحرف أشد الإنحراف -والعياذ بالله-، إذ كيف يسوّى بين كلام الله -تبارك وتعالى- الصادر منه الذي تكلم به -جل وعلا- وبين مخلوقاته، وقد قال أحد السلف: **الفرق بين كلام الله، وكلام المخلوقات؛ كالفرق بين الله وبين خلقه**، فكيف يسوّى بين ما هو صفة لله -تبارك وتعالي-، وبين ما هو مخلوق من مخلوقات الله جل وعلا؟! فلا يسوّى بينها إلا من انحرف عن سواء السبيل، ولهذا فُرق بينها في هذا الدعاء العظيم المبارك قال: «**ربّ السماوات**»، قال: «**رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ومليكه**»، قال: «**فَالِقَ الْحَبِّ**» بينما في التوراة والإنجيل، والقرآن، قال: «**مُنَزِل**» أو «**مُنزّل**» وذكر هذه الكتب المنزلة على ترتيبها في النزول فبدأ بالتوراة؛ لأنه نزل قبل الإنجيل والفرقان، ثم الإنجيل؛ لأنه نزل بعده، ثم ختم بالفرقان الذي هو خاتمة الكتب المنزلة، واخرها نزولًا، فلم يبدأ به مع عظمته وفضله عليها؛ لأنه رُوعي هنا ترتيب النزول، فذكر التوراة أولًا، ثم الإنجيل، ثم القرآن.

ثم قال: «**أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته**»، هذا شروع في المطلوب والمقصود الذي قُدّمت بين يديه تلك التوسلات، فبعد أن قدّم بتلك التوسلات العظيمة؛ بدأ بالمقصود المطلوب للعبد وهو أن يعيذه الله -تبارك وتعالى-، قال: «**أعوذ**

بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته»، وجاء في بعض ألفاظه: «**أعوذ بك من شر كل دابّة أنت آخذ بناصيتها**» وهما بمعنى واحد، ففيه التعوّذ بالله -تبارك وتعالى- من الشرور سواءً قلت: «**من شر كل ذي شر**» يعني: كل مخلوق قام به شر تستعيذ بالله منه، أو قلت: «**أعوذ بك من شر كل دابّة أنت آخذ بناصيتها**» والدابة: كل ما يدبّ، كل ما يمشي، سواء كان مشيه على بطنه، أو على رجلين، أو على أربع، أو على أزيد من ذلك، كلها دواب؛ لأنها تدبّ أي: تمشي، ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [النور:٤٥]، فكل ذلك بتدبيره وتسخيره سبحانه، والدواب كلها ناصيتها بيد الله يتصرف فيها كيف يشاء، ويحكم فيها بما يريد -جل وعز- فهي طوع تدبيره -سبحانه وتعالى- وطوع أمره -سبحانه وتعالى-، ولهذا قال: «**أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيتها**»، والدواب كلها رب العالمين آخذ بناصيتها كما جاء في دعوة هود عليه السلام: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [هود:٥٦]، فالدواب كلها نواصيها بيده -سبحانه وتعالى- يتصرف فيها كيف يشاء، ويحكم فيها بما يريد، والعبد إذا استشعر هذا المعاني؛ قويت ثقته بالله، وعظم توكله، وحسن التجائه إليه -سبحانه وتعالى-.

ثم توسل توسلات أخرى إلى الله -سبحانه وتعالى- بأربعة أسماء حُسنى عظيمة لله قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»، هذه أسماء حُسنى أربعة لله -تبارك وتعالى- يتوسل بها إلى الله، وقد جُمعت هذه الأسماء في أوائل سورة الحديد، قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣]، ونبينا -صلوات الله وسلامه عليه- بهذه الدعوة المباركة؛ تضمّن كلامه تفسير هذه الأسماء ولو قِيل لك وأنت تقرأ سورة الحديد ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣] ما معاني هذه الأسماء؟ ما معانيها؟ ما المراد بالأول؟ وما المراد بالآخر؟ وما المراد بالظاهر؟ وما المراد بالباطن؟ ما المراد بهذه الأسماء؟ تجد الجواب هنا في تفسير النبي -عليه الصلاة والسلام- فتقول: بناء على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام:

- الأول: هو الذي ليس قبله شيء.
- والآخر: هو الذي ليس بعده شيء.
- والظاهر: هو الذي ليس فوقه شيء.
- والباطن: هو الذي ليس دونه شيء.

هذا التفسير الذي لا تفسير يُقدّم عليه، تفسير النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهذا فيه دلالة على أن أسماء الله -تبارك وتعالى- كلها لها معانٍ، ليست أعلام لا معنى لها، بل لها معانٍ، كل اسم من أسماء الله -تبارك وتعالى- يتضمّن ثبوت صفة كمال لله؛ فالأول يتضمن ثبوت الأوليّة، والآخر الآخريّة، وهكذا أسمائه -تبارك وتعالى- كلها دالة على ثبوت صفات كمال لله -عز وجل- ، ولهذا ذكر النبي ﷺ هُنا الإسم وتفسيره قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ**.. إلى اخر هذه الدعوة»، ثم هذه الأسماء الأربعة التي خُصّت بالذكر هُنا وجاءت مجتمعة في سورة الحديد؛ فيها الدلالة على كمال إحاطة الله -سبحانه وتعالى- بخلقه الإحاطة الزمانية، والإحاطة المكانية. أما **الأول والاخر**؛ ففيهم الدلالة على الإحاطة الزمانية، فمن حيث الزمان فالله -تبارك وتعالى- أوّل ليس قبله شيء، إذا نظرت إلى الزمان فالله -تبارك وتعالى- أوّل ليس قبله شيء، وهو -تبارك وتعالى- اخر ليس بعده شيء، ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء.

والظاهر الباطن؛ يدلّان على الإحاطة المكانية فالله -عز وجل- مُحيط بخلقه. أما اسمه: **الظاهر**؛ فإنه يدلّ على فوقيته -سبحانه وتعالى- وعلوّه على خلقه، ولهذا قال: «**الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**» فهذا يدل على أن الله -عز وجل- له العلوّ، كما قال على نفسه: ﴿**هُوَ الْعَلِيُّ**﴾ [لقمان:٣٠]، وقال: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلى:١] وقال: ﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد:٩]، فالله -عز وجل- له العلوّ وله الفوقية، ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام:١٨]، والآيات الدالة على علوّه -سبحانه وتعالى- على خلقه لا تُحصر، فهي ليست بالمئات بل بالآلاف كما ذكر العلماء -رحمهم الله-، فهو الذي له العلو، يدل عليه اسمه الظاهر الذي ليس فوقه شيء.

ثم قال عقبه: «**الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»، وهذا فيه دليل على قربه -سبحانه وتعالى-، فمع علوّه على عرشه واستوائه عليه، ومباينته لخلقه، فهو بائن من خلقه، عليًّا على عرشه -سبحانه وتعالى- ومع ذلك فهو قريب، قريب من عباده، وهذا الذي يدل عليه البطون في قوله: «**الْبَاطِنُ**»، فهو يدلّ على قربه-سبحانه وتعالى- من عباده مع علوّه عليهم، ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة:١٨٦]، فالله -عز وجل- له العلوّ كما أخبر، وهو في علوه دانٍ من خلقه، قريب منهم -سبحانه وتعالى-، محيط بهم -عز وجل-، فهذه الأسماء الأربعة تدل على كمال إحاطة الله -سبحانه وتعالى- بخلقه، الأول الذي ليس قبله شيء، والاخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

ثم بعد ذلك شرع في المطلوب، قال: «**اقْضِ عَنَّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ**»، اقْضِ عَنِّي أي: أدّه عني، يسال الله -تبارك وتعالى- أن يقضي عنه دينه، أي: أن يؤديه عنه، والمراد بالدين هنا: أعم من المال الذي على الإنسان تجاه الناس، أعم من ذلك، بل المراد بالدين: الحقوق كلها؛ حقوق الله وحقوق العباد، فهذه كلها دين على الإنسان، وأمانة في عنقه، ومُطالب بأدائها والوفاء بها، وهي عهد بينه وبين الله والتزام، فيسأل الله -عز وجل- أن يُيسر له قضاء ذلك والقيام به، «**اقْضِ عَنَّي الدين**» يطلب من الله التيسير، والتسهيل، والعون، والتوفيق لأداء ذلك والقيام به، قال: «**اقْضِ عَنَّي الدين**» ويتناول بعمومه الدين الذى هو التزام مالي وتحمّل من الإنسان للآخرين، فيسأل الله -عز وجل- أن يقضى عنه دينه.

«**وَأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ**» يسأل الله الغنى، والفقر هو: ألا يجد الإنسان كفايته، أو لا يجد شيئا، أو لا يجد كفايته وما يسدّ حاجته، فمن كان بهذه الصفة فهو فقير، من لا يجد شيئا ومن لا يجد كفايته فهو فقير، فيسأل الله -عز وجل- أن يغنيه من الفقر، وكل من الدين والفقر همّ، والهمّ شأنه أنه يُقلق الإنسان ويؤرقه، وغالباً القلق الذي ينشأ عن الدين والفقر يكبر في الإنسان ويعظم عندما يسكن للراحة ويتهيأ للنوم وينتهى من الأعمال والمصالح التي تملئ وقته وتشغل وقته عن همه، فإذا سكن وآوى إلى فراشه لينام؛ تواردت على ذهنه هذه الأمور فأقلقته، ولهذا يحصل ما يُسمّى بالأرق، وشرود النوم، وعدم حصوله للإنسان، وتقلبه على الفراش وقتًا طويلًا يطلب النوم فلا يأتيه، بسبب الهمّ الذى يترتب عليه القلق، والقلق يترتب عليه شرود النوم عن الإنسان، ولهذا كانت هذه الدعوة مجيئها في هذا الموضع في غايه المناسبة؛ لأن العبد يُفوّض أمره إلى الله -سبحانه وتعالى- ويحُسن التجائه إليه وتوسله وتذلله فيحصل لقلبه طمأنينة وراحة، وسكون يهدأ قلبه، وأيضا تقوى صلته بربه ويقوى رجائه وأمله بالله -سبحانه وتعالى- أن يقضي عنه ديّنه ويُغنيه من فقره، ولهذا جدير بكل مسلم أن تعظم محافظته على هذه الدعوات العظيمة التي لم يكن رسول ﷺ سيد ولد ادم يدعها، لم يكن يدعها، إذا آوى الى فراشه أتى بها يناجي رب العالمين، ويتذلل بين يديه ويقول: -عليه الصلاة والسلام- وهو سيد ولد ادم بعد توسله بهذه التوسلات؛ يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ**»، هكذا يقول سيد ولد

ادم كل ليلة -عليه الصلاة والسلام-، يناجي ربه، فيسأل قضاء الدين من الله، ويسأل الغنى من الفقر من الله، فهو عبدالله، ولننتبه لهذا عبد لله، فقير لله، محتاج إلى لله، ليس بيديه شيء، الأمر كله بيد الله، قال الله له في القرآن: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران:١٢٨]، فالأمر بيد الله -سبحانه وتعالى-، وليت من وقعوا في الغلوّ في حقه -عليه الصلاة والسلام- يتأملون في أمثال هذه الأحاديث في حقه وحق غيره مما يقصدون القباب والأضرحة ومن يُسمّون بالأولياء؛ ليعرضوا عليهم حاجاتهم وطلباتهم، فمنهم من يعرض عليهم طلب الغنى من الفقر، ومنهم من يعرض عليهم طلب الشفاء من المرض، ومنهم من يعرض عليهم طلب قضاء الدين، إلى غير ذلك من الحاجات التي تُنزل -عياذًا بالله- بالقبور والأضرحة والقباب ومن يُسمون بالأولياء، وكل هذا من الشرك بالله الناقل من ملة الإسلام، فأمثال هؤلاء ليتهم يتأملون في مثل هذا الدعاء، فها هو سيد ولد آدم -عليه الصلاة والسلام- كل ليلة؛ إذا أوى إلى فراشه؛ يناجي من؟ يفتقر إلى من؟ يذل لمن؟ يطلب حاجته مِن مَن؟ فهو عبد -عليه الصلاة والسلام- والعبد لا يُعبد، العبادة والطلب كله لله، لا يُلتجأ في شيء من ذلك إلا إلى الله -تبارك وتعالى-. وأما أهل الغلوّ فشأنهم في هذا الأمر، الأمر عجب في ضياعهم وبعدهم عن دين الله -تبارك وتعالى- وبعدهم عن حقائق الدين وأصوله، حتى أن بعضهم من شدة غلوّه في حق النبي -عليه الصلاة والسلام- أطلق عليه هذه الأسماء الاربعة، رأيت في أبيات من يقول فيها مادحًا النبي -عليه الصلاة والسلام-:

هو الأول والآخر محمد * هو الظاهر والباطن محمد

-عياذ بالله-، هل يقول ذلك من يعرف الدين ويعرف الشرع، ويعرف القرآن ويعرف الدعاء الثابت عن النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ حتى إن بعض المصاحف المطبوعة طبعات تجارية مكتوب في آخرها أسماء النبي -عليه الصلاة والسلام-، ومن جملة الأسماء التي كتبوها له هذه الأسماء الأربعة: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، أسماء الله، هذا كله من الغلوّ، وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «**إياكم والغلوّ في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم؛ الغلو في الدين**»، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله**»، سمع رجل -عليه الصلاة والسلام- يقول: ما شاء لله وشئت فغضب، وقال: «**أجعلتني لله ندًّا!**»، وفي رواية «**أجعلتني لله عِدلًا! بل ما شاء الله وحده**». سمع امرأةً تقول: وفينا رسول الله يعلم ما في غدًا، فغضب وقال: «**لا يعلم ما في غدًا إلا الله**». وسمع من يُطريه فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**ما أحب أن تُنزلوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها**». ولما قال الأسِير: اللهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ، وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، قَالَ -عليه الصلاة والسلام-: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ** » -صلوات الله وسلامه عليه-، فهو-عليه الصلاة والسلام- بيّن التوحيد، ووضّحه للأمّة، وسدّ كل طريق يُفضي إلى الشرك، ولكن يأبى أهل الغلو إلا مناقضة ما جاء عنه، ومخالفة هديه -صلوات الله وسلامه عليه-، ولهذا نقول ليت هؤلاء يتأملون في مثل هذه الأحاديث، وفي مثل هذه الدعوات، من يذهبون إلى القبور لطلب الشفاء ألم يتأملوا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- في حياته لما كان يأتيه من يأتيه مُشتكيًا من المرض، ماذا كان يفعل معه؟ لما جاءه عثمان ابن مظعون وهو يشكو من ألم منذ أسلم، يجده في بطنه، ماذا قال له النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: «**ضع يدك على الذي يألم من جسدك، ثم قل: بسم الله ثلاث مرات ثم قل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأُحاذر**»، أرشده للجوء إلى الله، ولما كان يأتيه المريض كان يقول -عليه الصلاة والسلام-: «**اللهم رب الناس أذهب البأس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفائك، شفاء لا يغادر سقمًا**»، ثم يذهب هؤلاء المساكين إلى الأضرحة وإلى القبور يتمسحون بها وينطرحون عند أعتابها، ويتذللون لأصحابها، ويعرضون عليهم حاجاتهم، فهذا تراه باكيًا عند القبر يسأل مالًا، وذاك يسأل شفاءً، وذاك يطلب

ولدًا، إلى غير ذلك من الطلبات التي لا تُنزل إلا برب العالمين، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، ولهذا كل هؤلاء الواقعين في هذه الضلالات، وفي تلك الشركيات إنما أُتوا بعدم معرفتهم بكلام الله -عز وجل-، وعدم معرفتهم بكلام رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وعدم معرفتهم بالدعوات المأثورة عنه ﷺ.

أقول: يكفي المسلم أن يعرف التوحيد؛ أن يقرأ هذه الأدعية، هذه الأدعية كلها توحيد وإخلاص لله، والتجاء إلى الله -سبحانه وتعالى- وبراءة من الشرك، فهي كلها تحقيق للتوحيد، وتحقيق للإخلاص، وتحقيق للإستقامة على شرع الله، ولهذا نتوجه إلى الله -تبارك وتعالى- ملحين عليه، سائلينه -تبارك وتعالى- بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يُبصّرنا جميعًا بدينه، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يعيذنا من الضلال، وأن يباعدنا عن الشرك ووسائله وأسبابه، وأن يوفقنا لإتباع سنة نبينا الكريم -عليه صلوات الله وسلامه-.

(المتن)

وقال البرَاءِ بنِ عازِبٍ -رضي الله عنه-: قال لي رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيتَ مَضْجَعَكَ فَتَوضَّأْ وضوئك لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلى شِقِّكَ الأَيمَنِ، وقلْ: "اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نفسي إِلَيكَ، ووجّهت وجهي إليك، وَفَوَّضتُ أَمري إِلَيْكَ، وَأَجَأْتُ ظَهرِي إِلَيْكَ، رغبةً ورهْبَةً إِلَيْكَ، لا ملجأ ولا مَنجي مِنْكَ إِلاَّ إِليكَ، آمنتُ بِكِتَابِكَ الذِي أَنزَلْت، وَبِنَبِيِّكَ الذِي أَرسَلتَ، فإِنْ مِتَّ من ليلتك، مِتَّ عَلَى الفِطرةِ، وأجْعَلهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ». متفق عليه.

(الشرح)

ثم أورد المصنف -رحمه الله- حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه-، أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال له: «**إِذَا أَتَيتَ مَضْجَعَكَ**»، المضجع: هو الفراش الذي ينام عليه الإنسان، ويُسمّى مضجع؛ لأن العبد يضطجع عليه، يضع جنبه عليه.

قال: «**إِذَا أَتَيتَ مَضْجَعَكَ فَتَوضَّأْ وضوئك لِلصَّلاةِ**» والسبب في ذلك؛ لكي يأوي الإنسان إلى فراشه على طهارة، وهذه أكمل أحوال العبد المسلم أن يكون على طهارة، ولأنه سيشتغل بالذكر، وأكمل أحوال العبد حال ذكره أن يكون طاهرًا، يجوز أن تذكر الله -عز وجل- على غير طهارة؛ مُسبّحًا، ومهللًا، وحامدًا، يجوز ذلك، لكن أكمل أحوال العبد في ذكره لله -عز وجل- ودعاءه ومناجاته أن يكون على طهارة، ولهذا ذكر العلماء في كتب الأذكار من آداب الدعاء وآداب الذكر؛ الطهارة، أن يكون على طهارة ولهذا أرشد النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: «**إِذَا أَتَيتَ مَضْجَعَكَ فَتَوضَّأْ وضوئك لِلصَّلاةِ**»، إذا كان العبد على طهارة مسبقة فلا يحتاج إلى الوضوء، وإن كان على غير طهارة فإنه يتوضأ وضوؤه للصلاة؛ لأن المقصود بالوضوء: أن يأوي إلى فراشه على طهارة.

قال: «**فَتَوضَّأْ وضوئك لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلى شِقِّكَ الأَيمَنِ**»، وهذا كما نبّهت في درس مضى أدب من آداب النوم؛ أن يضطجع المسلم على شقه الأيمن. قال العلماء: وهذه أكمل أحوال الإنسان في اضطجاعه وفي نومه؛ لأن له في اضطجاعه حالات أربع:

- أن ينام على الشقّ الأيمن.
- الحالة الثانية: أن ينام على الشقّ الأيسر.
- والحالة الثالثة: أن ينام على ظهره.

- والحالة الرابعة أن ينام على بطنه.

وأكمل أحوال الإنسان في نومه أن ينام على شقّه الأيمن.

ولم أقف في شيء من النصوص ما فيه التصريح باستقبال القبلة، فاضطجاعه على شقه الأيمن؛ فإن تهيأ هذا اتفاقا وإلا ليس في النصوص ما يقتضي ذلك، ولأن الأمر قد يلحق الإنسان فيه مشقة؛ فلا يتهيأ له هذا الأمر، ولم أقف في شيء من النصوص التي وردت فيما يتعلق بالأذكار، وآداب النوم ما يدل على استقبال القبلة عندما يضجع على شقّه الأيمن، ولهذا لا حرج يضطجع على شقه الأيمن على أي جهة كان، فهذا أدب من الآداب. ثم نلاحظ هنا أن هذا الاضطجاع على الشقّ الأيمن؛ هو أول ما يبادر إليه الإنسان عندما يضجع، فيبادر إلى هذه السنة أول ما يضطجع، يكون اضطجاعه على شقّه الأيمن، ولهذا مر معنا سابقًا «**باسمك اللهم وضعت جنبي**»، ما قال: وضعت ظهري، ولم يقل وضعت بطني، قال: «**وضعت جنبي**»، وهذا يدل على أن الإنسان أول ما ينام؛ ينزل على فراشه جالسا ثم يضجع على شقه الأيمن، هذه هي السنة، وهذا الذي تدل عليه كثير من الأذكار التي وردت في الباب أن المسلم إذا أوى إلى فراشه يبادر إلى هذا، أول ما ينام يضطجع على شقّه الأيمن، أن يبدأ بذلك ثم يستمر على هذه الحال على شقّه الأيمن، ويأتي بالأذكار المشروعة الواردة واحدًا تلو الآخر، إلى أن يأتيه النوم وهو على هذه الحال، إن تمكّن من الاستمرار على هذه الهيئة يستمر، فهو أكمل له، وإن لم يتمكن تعب لم يحتمل، بعض الناس ربما لظروف معينة قد لا يستطيع، فله أن ينقلب على ظهره، وله أن ينام على شقه الآخر ينقلب إليه، لكن أول ما يُبادر؛ يبادر إلى الإضطجاع على شقّه الأيمن، ويُحاول أن يبقى على هذه الحال، فإن أحتاج إلى اقتلاب على الظهر أو اقتلاب على الجنب الأيسر؛ فلا بأس بذلك، لكن لا ينام على بطنه، لنهي النبي -عليه الصلاة والسلام- عن هذه النومة، وأخبر أنها نومة المغضوب عليهم، أو نومة أهل النار، الشاهد: أنه -عليه الصلاة والسلام- نهى أن ينام الإنسان على بطنه، ورأى شخصا نائما على بطنه فنهاه عن ذلك -عليه الصلاة والسلام-.

قال: «**إِذَا أَتَيتَ مَضْجَعَكَ فَتَوضَّأْ وضوئك لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلى شِقِّكَ الأَيمَنِ، وقل**»، وهذا فيه تلقين النبي -عليه الصلاة والسلام- لأصحابه؛ الأذكار والدعوات وإرشادهم إلى ما فيه راحتهم، وطمأنينتهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال: «**إِذَا أَتَيتَ مَضْجَعَكَ فَتَوضَّأْ وضوئك لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلى شِقِّكَ الأَيمَنِ، وقل**» ثم ذكر له هذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نفسي إِلَيكَ**»، إلى أخره».

قوله: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نفسي إِلَيكَ**» أي: جعلت نفسي، أو رضيت من نفسي أن تكون مستسلمة لك، راضية بحكمك وقضائك وما تشاؤه لي، فأنا أسلمت نفسي إليك، والأمر لك يا لله من قبل ومن بعد، مثل ما مر معنا «**لك نفسى**» أو «**لك مماتها ومحياها**» الأمر لك، إن شئت أرسلتها، وإن شئت قبضتها، فأنا أسلمت نفسي، إن قبضت نفسي فالأمر لك، وإن أرسلتها وكتب لي حياة فالأمر لك، فأسلمت نفسى إليك راضيًا بما تقضيه لي، وما تُدبّره، وأنا عبد من عبيدك راض بما قضيته ودبرّته لي يا رب العالمين.

«**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نفسي إِلَيكَ، ووجهت وجهي اليك**» وهذا فيه الإلتجاء إلى الله، والتوكل عليه -سبحانه وتعالى-، والإخلاص؛ وجّهت وجهي إليك أي: مخلصًا، متوكلًا معتمدًا عليك، مفوضًا أمري إليك.

«**وفوضت أمري إليك**» أي: توكلت عليك في أمري كله، وقوله: أمري مُفرد مُضاف فيعمّ، أي: في كل أمر من أموري، وكل حاجه من حاجاتي؛ فوضت أمري إليك، فتوفيقي بيدك، وصلاح أمري إليك، فأموري كلها أفوّضها إليك، متوكلًا معتمدًا عليك وحدك.

«**وألجأت ظهري إليك**» أي: أسندت ظهري لحمايتك وحفظك، ففيه احتياج العبد التام لحفظ الله ووقايته وكفايته -سبحانه وتعالى-، قال: «**وألجأت ظهري إليك**» أي: أسندت ظهري لحفظك، وحمايتك، وطلب الوقاية منك يا الله، فهذا فيه التجاء إلى الله -تبارك وتعالى- وطلب الحماية والعون.

قال: «**رغبةً ورهْبَةً إِلَيْكَ**» أي: أقول ذلك، وأطلب ذلك وأنا راغب راهب، راغب فيما عندك، وراهب أي: خائف من أن تردّني، وأن تمنعني من ذلك بسبب ذنوبي وتقصيري وتفريطي، فأنا جامع بين الرغبة والرهبة، كما قال الله -عز وجل- عن الكُمَّل من عباده وأنبيائه: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا**﴾ [الأنبياء:٩٠]، فقولك هُنا: رغبّةً ورهبّة إليك أي: أدعوك بهذه الدعوة، أدعوك بهذه الدعوات وأنا راغب راهب، اجتمع لي رجاء وخوف، رغبة ورهبة.

«**رغبةً ورهْبَةً إِلَيْكَ، لا ملجأ ولا مَنجى مِنْكَ إِلاَّ إِليكَ**» أي: المفر إليك وحدك، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ [الذاريات:٥٠]، أي: ليس لي من التجأ إليه، لا ملجأ لي، ليس هناك من ألتجئ إليه، وأعتمد عليه، وأفوض أموري إليه إلا أنت يا الله.

«**لا ملجأ ولا مَنجى**» أي: ليس لي نجاة، ولا مكان أفر إليه وأحصل به نجاتي مما يُهلكني ومما أخافه إلا بأن أفر إليك، وكل شيء يخافه الإنسان يفر منه إلا رب العالمين، إذا خافه؛ فرّ إليه -سبحانه وتعالى-، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ [الذاريات:٥٠] أي: شيء تخافه تفر منه، ورب العالمين إذا تحقق منك الخوف، أو تحقق فيك الخوف منه -تبارك وتعالى-؛ فررت إليه، ولجأت إليه؛ لأنك تعلم أن زوال خوفك وحصول نجاتك، وتحقق أمرك لا يكون إلا منه -تبارك وتعالى-، ولهذا قال: «**لا ملجأ ولا مَنجى مِنْكَ إِلاَّ إِليكَ**» فإليك المفر، وإليك المفزع، وإليك الملتجأ، ونجاتي بيدك، هذا معنى قوله: «**لا ملجأ ولا مَنجى مِنْكَ إِلاَّ إِليكَ**».

ثم قال: «**آمنتُ بِكِتَابِكَ الذِي أَنزَلْت**»، آمنتُ أي: أقررت، بِكِتَابِكَ أي: القرآن الكريم، الذِي أَنزَلْت أي: على عبدك ورسولك ومصطفاك محمد ﷺ، أنزلته هداية ورحمة وذكرى للذاكرين، آمنت به، وأنه كتاب منزّل من ربّ العالمين، فيه الحق، وفيه الهدى، وفيه الفلاح، وفيه السعادة، آمنت بذلك، «**آمنتُ بِكِتَابِكَ الذِي أَنزَلْت**» وهذا فيه أن القرآن مُنزّل، ليس مخلوق، أنزله الله، نزل من رب العالمين، مثله ما مر معنا في الدعاء الذي قبله: «**مُنزّل التوراة، والإنجيل، والفرقان**»، فكتاب الله -عز وجل- مُنزّل.

قال: «**آمنتُ بِكِتَابِكَ الذِي أَنزَلْت، وَبِنَبِيِّكَ الذِي أَرسَلتَ**»، قال: بِنَبِيِّكَ أي: محمد -عليه اصلاة والسلام-، الذِي أَرسَلتَ أي: أرسلته إلى عبادك هاديًا وبشيرًا، ﴿**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾ [الأحزاب:٤٦] آمنت بذلك، وآمنت بأنه بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة -صلوت الله وسلامه عليه-، «**وَبِنَبِيِّكَ الذِي أَرسَلتَ**».

ثم قال النبي -عليه الصلاة والسلام- للبراء مبيّنًا له عظمة هذا الدعاء وكبير أثره، وعظيم فائدته قال: «**فإِنْ مِتَّ من ليلتك**» أي: ليلتك التي دعوت فيها بهذه الدعوات، «**فإِنْ مِتَّ من ليلتك، مِتَّ عَلَى الفِطرةِ**» والمراد بالفطرة أي: الإسلام، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم:٣٠]، فالفطرة هي: الإسلام، فإن مت مت على الإسلام، على فطرة الإسلام التي فطر الله -

تبارك وتعالى- العباد عليها، وقد قال -عليه الصلاة والسلام- في الحديث الصحيح: «**كل مولود يولد عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحُسون فيها من جدعاء، إلا أن تكونوا أنتم الذين تجدعونها**». قال: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**» ولم يقل: يُسلمانه، لأنه يُفّطر على الإسلام، وفي الحديث الآخر يقول الله تعالى: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**».

فيقول -عليه الصلاة والسلام-: «**فإِنْ مِتَّ من ليلتك، مِتَّ عَلَى الفِطرةِ**» أي: على دين الفطرة، على الذي هو الإسلام، دين الله -تبارك وتعالى- الذي فطر عباده عليه. جاء في بعض ألفاظ الحديث قال: «**فإِنْ مِتَّ من ليلتك، مِتَّ عَلَى الفِطرةِ، وإن أصبحت أصبت خيرًا**» لأنك إذا دعوت بهذه الدعوة ونمت؛ لا تخلو من حالين: إمّا أن تموت فتكون موتتك على الفطرة، وأما أن يُفسح لك في الأجل فيكتب لك خيرًا إذا أصبحت، فانت محصل لخير عظيم في محياك ومماتك، إن مت حصّلت خيرًا، وإن أصبحت أصبت خيرًا، كما أرشد إلى ذلك النبي -عليه الصلاة والسلام-.

وهذا الحديث فيه فائدة عظيمة جدًّا في شأن الأذكار، هل عندما يدعو المسلم بهذه الدعوات هل منها شيء يتعلق بغده؟ هل فيها طلب يتعلق مثل أن يقول: اللهم إني أسألك خير هذه الليلة وخير ما بعدها، هل يوجد فيه طلب فيما يتعلق بالغد؟ ولكن انظر بركة الأذكار؛ حتى وإن لم يطلب الإنسان يأتيه الخير، وهذه فيه فائدة يا إخوان، أن المحافظة على الأذكار بركة على الإنسان في حياته، في لياليه وأيامه بركة، حتى الشيء الذى ما تطلبه يأتيك من بركة الذكر، وبركة المحافظة عليه، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: «**فإِنْ مِتَّ من ليلتك، مِتَّ عَلَى الفِطرةِ، وإن أصبحت أصبت خيرًا**»، هنا أيضا لك أن تقول: ما الخير الذي أُصيبه؟ ماذا يدل عليه هذا السياق الكريم المبارك «**وإن أصبحت أصبت خيرًا**»؟ نكّر الخير الذي يُصاب؛ تفخيمًا لأمره، وبيان لعظمه، وفضل الله -تبارك وتعالى- واسع، والعطية على قدر المعطي، الذي سيعطيك الخير من هو؟ رب العالمين -جل وعز-، والعطية على قدر معطيها.

قال: «**وإن أصبحت أصبت خيرًا**» أي: منّ الله عليك بالخير، فهذا نستفيد منه فائدة عظيمة جليلة القدر، وهي أن المحافظة على الأذكار بركة على العبد في حياته ومماته، يُكتب له البركة في حياته، ويُكتب له أيضا التوفيق للموت على الفطرة، وعلى ما فيه السعادة والفلاح إن كان مات، وإن أصبح أصاب خيرا، كما أخبر نبينا -عليه الصلاة والسلام-.

قال: «**واجعلهن آخر ما تقول**» يعنى: اجعل هذه الدعوات آخر شيء تقوله، بمعنى أن هذه الدعوات ورد في السنة أشياء يسبقها، وهذا فيه جواب على سؤال يأتي كثيرًا من بعض الأخوة عندما يرد في النوم أو في الصباح أذكار الصباح، أو أذكار المساء؛ يسأل كثير الناس يقول أكتفي بواحد منها أو آتي بها كلها؟ فقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**وأجعلهن آخر ما تقول**» هذه فيه إشارة إلى ماذا؟ إلى أن للنوم أذكار عديدة متنوعة لا تكتفي بواحد منها، وإنما حاول أن تأتي منها بما استطعت، وليكن آخر ما تقوله منها هذا الدعاء، فهذا فيه جواب على ذاك السؤال، أنواع الاذكار الواردة في النوم، هل آتي بها كلها، أو كل يوم كل ليلة أختار منها واحدة؟ بعضهم يسأل هذا السؤال، كل ليلة آتى منها بواحد أم آتى بها كلها؟

فالجواب أنك تأتي منها بما استطعت، وكلما جئت بأكثر؛ كان نصيبك من هذا الذكر والدعاء أعظم، وحظك أوفر، وليكن أخر ما تقوله من أذكارك ودعواتك؛ هذا الدعاء الوارد في حديث البراء بن عازب.

في حديث آخر جاء عن النبي -عليه الصلاة والسلام- حديث ثروة، أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال له: «**اقرأ قل يأيها الكافرون عندما تأوي إلى فراشك**»، وقال له في الحديث: «**واجعلها آخر ما تقول**»، حديث فروة يدل على استحباب قراءة

قل يا أيها الكافرون إذا أويت إلى فراشك، هو حديث ثابت عن النبي-عليه الصلاة والسلام- يُستحب لك إذا أويت إلى فراشك أن تقرأ قل يا أيها الكافرون مرة واحدة، وأيضا يُستحب أن تكون هي ماذا؟ يُستحب أن تكون هي آخر ما تقرأ، وكيف تجمع بينها وبين هذا الحديث؟ الجمع مُتيسر فيما يتعلق بالدعاء، والسؤال، والطلب، ليكن آخر دعواتك ماذا؟ هذه الدعوة التي جاءت في حديث البراء، وفيما يتعلق بالقراءة آية الكرسي، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، فليكن اخر ما تقرأ؛ قل يا أيها الكافرون. وبيّن -عليه الصلاة والسلام-، أنك إن مت في حديث فروة الذي فيه قراءة قل يا أيها الكافرون؛ «**أنّك إن مت، مِتَّ على البراءة من الشِرك**»، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**يُكتب لك براءة من الشِرك**» مثل ما قال هنا: «**تموت على الفطرة**» وهُناك «**بريئًا من الشِرك**» لماذا؟ لأن قل يا أيها الكافرون سورة أُخلصت للتوحيد، توحيد الله وإخلاص العبادة له، ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ[١]لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ [الكافرون:٢]، هذا التوحيد ﴿**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ[٢]وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[٣]وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ[٤]وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[٥]لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون:٦] ثم تنام، وأنت تقرأ هذه الآيات وتستحضر معناها تموت إن مت بريئًا من الشرك، ولهذا بعض السلف كان يُسمى سورة الكافرون "المقشقشة " أي: التي تقش الشرك، ما تُبقيه، تطرده وتُبعده، وقشقشتها للشرك لا تكون بمجرد القراءة، بل لابد أن تقرأ وأنت محقق ما دلّت عليه من التوحيد، والإخلاص، والبراءة من الشرك، فإذا قرأ المسّلم: قل يأيها الكافرون إلى تمام السورة؛ مستحضرًا معناها، ومات من ليلته؛ مات بريئًا من الشرك كما أخبر بذلك رسولنا الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم بعد ذلك انتقل المصنف -رحمه الله- في فصل فيما يقوله المستيقظ من نومه ليلًا، ونكتفي بهذا القدر، والله تعالى أعلم -وصلى الله وسلّم- على نبينا محمد.